..▹ تقوم هذه المحاولة النقدية بالنظر إلى قصيدة لطفي أمان: (بلادي حرة) نظرة كلية ترى فيها كيفية بناء علاماتها الشعرية بحيث لاتكون القصيدة مرآة إلا لنفسها.

تبدأ من سواد الكفاح ومشقته ،إلى بياض التحرر وجماليته؛ في علاقة تضادية يهيمن فيها عنصر النور ويوحد علاماتها في نموذج؛ يكون فيه النور سلكا (نظاما) والكلمات (لآلئ وخرزات): سمراء ،وسوداء، وصفراء وحمراء. وخضراء، وألوان أخرى متدرجة ،تجعل القصيدة مسبحة ملونة في فلك من النور. كل ذلك على مستوى اللغة الشعرية. ليس سوى تحويلات جمالية على ثيمتي القوة والحق من جهة، والخصب والجمال من جهة أخرى في قصيدتي أبي تمام: (عمورية) و(الربيع)

د. أحمد عبيدون

لطفي آمان

النور والخرزات

قراءة في قصيدة لطفي جعفر أمان (بلادي حرة)

من الكلمات إلى الكلمات

وسوف نحاول في هذه القراءة أن نتحرر من أمثال هذه الأحكام الخارجية ،متنبهين إلى أننا نواجه نصا شعريا مكونا من كلمات ،وأننا معه أمام تجربة شعرية في اللغة وليس في الواقع ،وحين نحاول الاستناد على شيئ ننطلق منه في معاينة هذا النص؛ فإنه لن يجدينا نفعا ان نعود إلى الحياة أو إلى الواقع إلا بمقدار ما يتحول هذا الواقع إلى لغة، أو كلمات ،فليس أمامنا من مهرب عن مواجهة الشعر إلا إلى الشعر، أو الكلمات إلا إلى الكلمات أما الشاعر فليس سوى مخرج ،أو منسق ، أو منظم لهذه الكلمات من بين كلمات كثيرة سبقته، وهو بمجرد ما ينطق الكلمة؛ فإنها تنتقل من كونها علامة على ذات المخاطب، إلى كونها علامة على ذات الخطاب؛ لأن الكلمة هي ببساطة كلمة؛ وليست جثة كما يقول النحويون العرب؛ لذا فالتأمل في هذه القصيدة يوقفنا وجها لوجه أمام شعر أبي تمام ،وعلى الخصوص أمام درتيه اللامعتين (عمورية)، و(الربيع).

وإذا كانت العلاقة من الخفاء بحيث تحتاج الى مزيد من التأمل والمتابعة.. فإن في هذا الديوان: (إليكم يا أخوتي) إشارة صريحة إلى أن شعر أبي تمام قريب.. على مرمى قصيدة أو قصيدتين منه ،يقول:

«السيف أصدق انباء من الكتب» (٢)
هذا كلام جرى في سالف الحقب
اليوم تصدق بازوكا مدوية
تصيب قلب الدجي الوهاج بالرعب

وعلى الرغم من أن النص المتأخر يقوم بعمليات تحويل مختلفة على النص المتقدم؛ من تأويل، أو محاورة، أو إعادة كتابة... فإن هذه الأبيات ترى في السيف أداة حقيقية للحرب، ولاتراه رمزا: لقوة الحق مثلا؛ فهي تضع مكانه؛ بازوكا وربما دبابة أو طيارة... في حين أن كلمة (السيف) نفسها – في دلالتها على الحق والقوة – يمكن ان يشمل مدلولها ما نعلم من البازوكا والدبابة ،وما لانعلم من أدوات الحرب الحديثة .

والحق أن قصيدة أبي تمام ؛ وهي تواجه معرفة: (الظن والرجم بالغيب) في (كتب) المنجمين؛ تضع (كتابا) آخر في مواجهتها هو الكتاب (القرآن)، لكن في لحظة (فعل وعمل)، وبذلك يصعد التناص – في دلالة السيف على القوة والحق – إلى مفهوم (الجهاد) الذي يحضر آية الكتاب الأول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» (٣) وهذا ما تلمحه القصيدة التي نقف إزاءها الآن ،فهذه الكلمة الغائبة بلفظها الحاضرة بدلالتها نجدها محولة في القصيدة إلى كلمة (الكفاح) تبدأ بها كالآتي:

على أرضنا بعد طول الكفاح..
تجلى الصباح .. لأول مرة

وهو كفاح يستنفد التعب وبذل الجهد في محاربة العدو، كما يستغرق للوصول إلى ذلك وقتا ليس باليسير تدل عليه كلمة (طول) مع تقدم الجار والمجرور والظرف قبل الفعل .. فنرى مقدار الصعوبة ،وطول المسافة التي قطعت في الكفاح قبل تجلي صباح الثورة؛ لذا يغدو الصباح المنبثق الآن صباحا جديدا؛ لأنه اليوم الأول من أيام النصر من أجل ذلك يؤكد على فرادته واختلافه عن كل صباح مضى من قبل بقوله: (لأول مرة).

وفي ذلك انتقال من طرف سائد إلى طرف أسيد: من احتلال إلى نصر، ومن ليل إلى صباح ،ومن نوم إلى صحو: (أجل قد صحونا لأول مرة) (كأني أعيش لأول مرة).

من الظلمات إلى النور:

يمكن أن نلاحظ أن القصيدة تبتدي من الظلام إلى النور، أومن السواد إلي البياض، وهو أمر يجعل علاقة وجود القصيدة علاقة تضاد من النوع الذي يتولد فيه الضد من الضد: فالكفاح – وهو جهد ومشقة وسهر وقتال – فيه معنى السواد من النوع الذي يصنعه أبو تمام: (الغناء) الذي يتولد من (العناء)، و(النضرة) التي تتولد من (الشحوب)، و(الراحة) التي يكون (التعب) جسرا لها (٤)، فمن الكفاح – بهذه المعاني – يتولد صباح الانتصار.

ومن سمر الجباه تشرق شمس الحرية: (وقبلت الشمس سمر الجباه)،ولاشك أن السواد هنا، أو السمرة هي علامات للجهد، والتعب، والمرابطة تحت حرارة الشمس، لذا يطلع نور شمس الحرية من سمرة هذه الجباه وسوادها.

وهذا سواد الحروف يتحول إلى بياض من نور يدل عليه حبر الكتابة كما يدل سواد كتب المنجمين وصحائفهم المتضاد مع بياض السيوف وصفائحها عند أبي تمام؛ ينكتب سواد الحروف على اللواء الخفاق في سماء البلاد في العبارة (بلادي حرة) ،لكن الكتابة تتحول إلى نور: فليس السواد إلا في شكل الدال المادي المرئي، أما المدلول فهو أبيض يفيض على أرض الدال فيجعل من الحرية حروفا من نور:

ويرسم فوق اللواء الخفوق
حروفا تضيء .. لأول مره
بلادي حرة...

كما يمكن ان تتحصل من هذه الوحدة دلالة أخرى وهي أن الكفاح لم يكن بالأداة المادية وحدها، وإنما بالفكر والعلم؛ الذي هو نور ينبثق من هذه الأحرف النيرة، كما انبثق العلم من شهب الرماح بين الخميسين في أرض المعركة عند أبي تمام؛ ذلك العلم الذي خفتت له أضواء النجوم والشهب ،وانطفأت معه نبوءات الرواية: (أين الرواية بل أين النجوم...) ،تماما كما سقطت قلاع المستعمر ودباباته ،وتهاوت عروشه عند لطفي جعفر أمان:

فاين القلاع مدوية
تصول .. وتردي .. وتستهتر ؟
وأين العروش مفخمة ؟
وأين من الشعب مستعمر ؟

وأخيرا نقرأ في هذا السياق – سياق النور المتولد عن السواد – تولدا متضادا:

بلادي .. ضفائرها الألقات
توزع فوق المرابع فجرا

فالضفائر السوداء – وهي دليل الزينة والاكتناز والخصب – فضلا عن تجاورها الصوتي مع (الظفر) – النصر – يبعث سوادها الالق والنور، تماما كالفجر الذي ما زال يتلبس الظلمة والسواد، ثم يبدأ ينجلي عنه الصبح رويداً رويدا فهي لحظة انقشاع للسواد، وتجل للنور والبهاء ،وربما تتجاوز هذه السمة أبا تمام لتتصل بمعنى أولية الليل في الآية «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ...» (٥)

النور والخرزات:

يمكن القول إن هناك عنصرا متسيدا؛ تكون له الهيمنة والقوامة على كلمات القصيدة وهو الذي يحقق التوازي والتوازن الدلالي بين كلماتها؛ بحيث لا تكاد تسلم منه كلمة ،فهو يمتد بثقبها ،وينتظمها بسلكه القوي .. ذلكم هو (النور) يمثل المحور العمودي يسقط على خطيه خرزات الكلمات؛ فيجعلها تدور وتنتظم في سلكه البهي ،وهي لآلئ صماء أبكار ،يولج فيها شعاعة النافذ كما تدل اللازمة المتكررة: (لأول مرة).

فالأولى: خرزة الصباح يثقب فيها النور سواد الليل؛ فتشرق بالضياء، كما يدل الفعل: (تجلى)، والثانية: خرزة الفضاء التي يوجد النور فيها جناحي: الزمان والمكان ،فيغدو سكونه حركة وطيرانا: أجنحة في اليمين وأخرى في الشمال، في حركة من التحليق في الأفق ،والتعبير عن حركة الزمان والمكان في كلمة الفضاء تعبير دقيق لوصف وحدتهما في كل لاينفصم: Time Space.

وطار الفضاء طليقا رحيبا
بأجنحة النورينساب ثرة

ثم خرزة الجباه السمر تشرق فيها قبلة الشمس فتحرر سوادها بالنور.

ثم خرزة الزمان تثقبها الأنوار، فيتحول ظلامها إلى نور، كما تدل كلمة (مهرجان) التي تشع بالأضواء في كل اتجاه .

ويمكن أن نرى حركة الزمان في شكل دورة تعود فيها إلى نقطة اكتمال هذه النقطة هي خرزة العيد في لحظة المهرجان: فالزمان حين يثقبه النور ينتج اللحظة المكتملة (العيد) أو كما يقول:

لقد أنجب الدهر أعياده

ثم خرزة الربيع وهو لحظة في الزمان مكتملة ،يتواصل فيها طرفا السماء والأرض في إنجاب النبات والزهور المفتوحة للنور والشمس،ولأمر ما سمي الزهر (نورا)؛ فلا فرق إلا هذا الفتح الذي يتلقى النور.

وفي ذلك نرى الصحارى تتحول بنور الربيع من السواد والصفرة إلى الخضرة.

وحتى الصحارى كان الربيع
حواها وزينها فهي خضر

ثم خرزة الحروف التي يشرق سوادها بالنور في العبارة (بلادي حرة) وهي عبارة تتكرر وتكون عنوان القصيدة ،ولعلها تكون في أعلى مكان يمكن ان توجد فيه وهو (اللواء) وهو مكان عال حسيا ومعنويا ،وهذا التعبير يتكون من كلمتين مكتملتين متوازيتين متعادلتين نحويا كونهما مبتدأ وخبرا تمثل اولاهما محوراً عموديا ثابتا؛ وصوت الألف دليل هذا الامتداد ففي معنى الكلمة الثبات والإقامة (٦) ،كما أنها في صيغة جمع، مضاف إليها ضمير المتكلم .أما كلمة (حرة) ففيها حركة أفقية مكررة كما يدل صوت الراء ،هكذا إذن يثقب نور المدلول الأبيض سواد الدال الكتابي الأسود فتتولد خرزة بيضاء وهي لؤلؤة الحرية.

وفي خرزة البدر نجد لحظة الاكتمال الزماني يكون فيها النور أكمل ما يكون ؛ فحين يزيد ويشرق يسلك سلوك الماء فيخصب، وهنا يتحول لونه الأبيض إلى أخضر وهو ما نجده في :(يورق بدر) إذ أننا زمام اتصال بين عالمين ممتزجين عالم (الماء) وعالم (النور) يتبادلان العمل، وكما البدر المورق نرى (فيضان الفجر).

وفوق شواطئنا الراقصات
مع النور.. فاض من الخلد فجر

هكذا تدلنا الشواطئ على المياه المتحركة الصافية التي يغشاها النور فائضا عليها كالماء: فالماء يرقص، والنور يفيض.

هكذا يتراسل او يتواصل عالمان من الخصب والإشراق (٧).

وفي خرزة النجوم يثقب النور النور وذلك بحركة منتظمة من الوميض كما تدل حركة الرفيف من قوله :(ترف النجوم).

ثم نرى خرزة النبات في المراعي الخضراء ينبسط عليها جناح من النور، فيتواصل النور الأبيض مع الزرع الأخضر بالعبير الأريج: وضم مرعينا والحقول جناح غمير العبير أغر

وهذه في الحقيقة مجموعة من الخرزات الملونة المتساوية الحجم في خصيصتين أساسيتين اللون والحركة ،أو الرائحة والحركة.

وهكذا تتوالى الخرزات، خرزة الفجر الأسود يثقبه نور الصباح والضفائر السوداء تثقبها خيوط النور وتنبثق منها (ضفائرها الألقات) والأغاني التي يغمر نورها الأطفال فيجتمع الصوت والنور والحركة.

والنور الذي يثقب حبات الدم فيتفجر نهرا أبيض، ويبقى أخيراً (العقد) الذي يشد طرفي خيط نور هذه الخرزات ويجمعها ،ويجعلها تعبر عن مدلول واحد ينتظمها في سلكه يكون بؤرتها ومركزها البنيوي ،ذلكم هو (النصر) في قوله:

وقد عقدوا النصر من بعد ثورة

والحقيقة أننا أمام مجموعة من لحظات الاكتمال والتواصل والإنتاج تمثلها الكلمات التامات التاليات:

الفضاء /البدر/ الربيع/ الزَّهر/ العصر/ الفجر

النور/ الماء/ البشر/ العيد/ النصر

إن النور وهو يحضر بهذه الهيمنة والكثافة نجده يجمع بين خصيصتين هما: (الحركة) و(الإنارة)، لذا نجده يتمثل في (ثيمة) تحمل هاتين السمتين: وهي :(الطائر) نجده يتوزع في النص في تراكيب عدة كالآتي:

وطار الفضاء /بأجنحة النور/ وغنَّى لنا.. /ترف نجوم/ اللواء الخفوق/ تحرر/ جناح غمير.. /الشياه تكاد تطير/ وتشدو..../ وطيري حر/ وقلبي حر/ يطير على.../ فتهتف روحي . ذلكم هو طائر النصر والحرية والنور.

نستطيع أن نلاحظ من الخرزات الدلالية تلك ألوانا مختلفة فهناك اللون الأبيض في رفيف النجوم، وهناك الأسمر في الجباه السمر التي تقبلها الشمس، والأسود الذي يتحول إلى البياض في الضفائر التي توزع النور، والأزرق في الماء الغمير، والأخضر في المراعي والربيع، والأسود أو الأصفر الذي يتحول إلى أخضر في الصحارى الجرداء التي تغدو خضراء بالنبات، والأحمر في الدم الذي يتفجر نهراً أبيض ،وهناك ألوان أخرى في الزهور والزنابق التي تنضح بالعطر، كالأبيض المخضر في البدر المورق، والأسود المبيض في الفجر الفائض بالنور.

وإذا كانت هذه الخرزات أقرب إلى الأحجار الكريمة من اللؤلؤ والمرجان والزمرد.. بسبب عنصر النور الذي يهيمن عليها فإننا نراها تحويلات جمالية على ألوان أبي تمام في الربيع؛ التي تظهر في النهار المشمس الذي يشوبه زهر الربا فيبدو مقمرا، وفي الأزاهير المحمرة المصفرة التي تشبه البرود اليمانية ،وفي النبات الأصفر والساطع الأحمر ،وفي الأخضر من النبات الذي يعود أصفر ،فلديه أربعة ألوان أساسيه الأبيض، والأحمر والأصفر، والأخضر؛ تنتج ألوانا أخرى فرعية: أربعة أيضا هي: الأصفر المحمر، والأبيض المخضر، والأبيض المصفر ،الأبيض المحمر.

وإذا كنا هنا مع الدر والخرزات؛ فإننا لن نعدم الدر عند أبي تمام؛ فهو يشبه النبات الأصفر (بالدر) الذي يشقق ثم يزعفر (٨) هكذا تجتمع هذه الخرزات الملونة المعطرة حبات موصولة جميعها بسلك من النور، يوحدها ،ويجعلها تدور في فلك واحد هو فلك الانتصار والحرية.

ما يدعو للتأمل في إيقاع القصيدة هو التناثر الذي يؤدي إلى التواصل .أو التفاصل الذي يؤدي إلى التراص، تماما كخرزات المسبحة المنتظمة في سلك، ومن هنا كان اختيار تفعيلة واحدة تتكرر كما تتكررالخرزة في السلك وتتقارب الواحدة منها خلف الأخرى وربما تصادمت متوافقة مع خرزات الدلالة محدثة صوتا منغما.

جناح غمير العبير أغر

من رفة الجناح ،إلى دغدغة الماء ، إلى نضح العبير، حتى امتداد النور .

ويساعد على تصور ذلك تأمل مواقع أصوات الحلق (ح،غ،ع،غ) مع ترديد صوت الغين والراء.

والمتأمل قوافي القصيدة يرى أن الصوت المهيمن عليها هو صوت (الراء) وهو صوت فيه حركة وتكرير بذاته (٩) ،والتشديد عليه والالتفات نحوه بهذه الكثرة يزيد من فاعليه هذا التكرر وهذه الحركة ولأن النور هو العنصر المهيمن ؛ فإن الراء يساعد على رؤية حركة النور في القصيدة ويمده إلى مدى أبعد.

فقد جاء في حال من الحركة المضارعة مضموما:

يهدر/ يقهر/ تستهتر/ مستعمر/ اسخروا

كما جاء في حال الضم المشدد وغير المشدد:

بدر/ مجر/ آغر/ تطير/ خضر/حر

كما جاء مفتوحا في حال من الإطلاق:

نهرا/ شعرا/ عمرا/ فجرا/ عطرا/ بشرا/ حرا

وجاء أخيرا مفتوحا مطلقا متوافقا مع النفس كما تتدحرج خرزة أو تنهيدة من الفرح والنشوة:

مره/ ثوره/ إثره/عطره / حره/ زهره/ ثره/ المستقره

والحقيقة أن صوت (الراء) الذي يعبر عن حركة النور وانتشاره... لا نجده في القوافي وحدها بل نجده صوتا حاضرا في كثير من الكلمات غير القوافي مثل:

طار/ أرضنا/ سمر/ النصر/ مهرجان/ ربيع/ الحر/ يرسم/ حروفا/ تحرر/ ترف/ يورق/ النور/ مراعينا/ غمير/ العبير/ بحرية/ الصحارى/ الصخر/ ضفائرها/ المرابع/ يفتر/ الدهر/ بثورتنا/ روحي/ ردفان/ النصر/ تردي/ العروش/ ينشرها.

لماذا النور ؟

إن فعل الكفاح أنتج التحرر، فحول (رؤية) البلاد من الظلام الى النور، من الجهل ،إلى الوعي، من العبودية إلى الحرية، من السواد إلى البياض .

وأنا أؤكد هنا على الرؤية ،لأن الشمس التي تشرق الآن ليست شمسا حسية، إنها شمس في القلب أو في العقل لاترى بعين البصر، إنما بعين البصيرة، لأنها لم تكن موجودة من قبل: فهي في قوله:

تجلى الصباح لأول مرة

فالصباح لايتجلى الان إلا عن شمس جديدة ،وإن كانت غير موجودة على مستوى الكلمات ،فهي ساطعة على مستوى أرض الخطاب ،لاتماثلها إلا شمس أبي تمام الموجودة في قوله:

تصرح الدهر تصريح الغمام لها

فالدهر الآن تكشف عن شمس لاترى في أرض الدال ولكنها حاضرة بقوة تجعل الدجي يرغب عن لونه الأسود؛ فيخلعه ويرتمي في شمس التحرر في زمن من الوعي والعلم شمسه لاتغيب (١٠).

الهوامش:

١- الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان (اليكم يا إخوتي): ٣٩٧ – ٤٠٠.
٢- المصدر السابق: ٤٠٩.
٣- الأنفال: ٦٠.
٤- قوله: رب خفض تحت السرى وغناء
من عناء ونضرة من شحوب
و: بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب
٥- يس: ٣٧.
٦- ينظر: المصباح المنير: مادة بلد.
٧- مصطلح تراسل الحواس في الاستعارة ربما يدل على الشخص اكثر مما يدل على الصياغة فالرؤية هي تداخل عالمين ،أو تواصلهما في علامة واحدة.
٨- تنظر الأبيات في شرح الصولي لديوان أبي تمام في الرائية: (رقت حواشي الدهر):١/ ٥٣٦.
٩- الصفة المميزة للراء هي تكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها طرقا لينا يسيرا مرتين او ثلاث لتتكون الراء العربية ،ينظر: الأصوات اللغوية: ٦٦.
١٠- إشارة إلى البيتين:
تصرح الدهر تصريح الغمام لها
عن يوم هيجاء منها طاهر جنب
حتى كأن جلابيب الدجي رغبت
عن لونها وكأن الشمس لم تغب.

حينما جئت الى الأرض..

الأزهري عبدالملك السنباني

دعوني أسير
إن لي أفراحي وأحزاني
لي آمالي وأحلامي
التي تتجلى لعيني
فلا يراها منكم أحد..
دعوني أُسائل نفسي:
أين الطريق الذي خِلتهُ
ذات يوم.. طريقي..
وأين الصديق
الذي أرتجي أن يظل صديقي..؟
أين شقيقي الذي لم يكن
ذات يوم.. شقيقي؟
●●●
لماذا؟!
تشعلون النار في صدري
ولا.. تأسون
لا.. تمضون
ساعة تصطلي الأعماق..
ولا.. تهبون
ساعة تسقط الأوراق..
ولا.. تذرون
في الأحشاء غير.. الجمر
كنت وحدي
ساعة ما باعني المترفون
كبار المرابين.. لكنهم ما اشتروني
أنا الواعد الشبل
صوت المدائن.. موالها السبأي
●●●
كنت وحدي
من مزّق الصمت ذاكرتي
فاحتضرت
أنا.. أروع الأشقياء
أروع الأتقياء
الخليفة في الأرض
في ثوبي القدسي..
كنت وحدي ساعة قومي
لم يخرجوا من زمان الكهوف
لم يقبلوا في الصفوف الألوف
ساعة ظلوا.. وظل الخطيب
يحدثنا عن زمان القوافل
عن آخر الحلم في ليل عاشور
عن موعدٍ .. لن يجيء
●●●
لم.. يبتد من خطانا..
لم.. يتحسس لظانا..
لم.. يرتج هاهنا موثقاً
أو.. هناك أماناً..
لم.. ينته في صفوف المصلين..
كانت ألفّ المغيرين.. نشوى
تقاسمنا الجلد والربوات
ولم يدر
ان الزمان هوى.. غابر..
ان المساء هنا.. عابر..
أن الصدور ملاذ لحقد المغيرين
أيها الموتى..
أنيروا.. أي درب في طريقي
وذروا.. النهر الذي يجري على الأرض
رفيقي..
ودعوا البحر خيالاتي وهمسي وصديقي
ودعوني أتوالى..
●●●
حينما جئت الى الأرض
لم يكن وجهي.. أصفر
لم أكن أحمل في جيبي شارات
ولم أُدْعَ.. لحضر
لم تكن في قلبي آهات
ولا.. أحتاط في صدري بخنجر..
كنت لا أعلم
أن الجلد يأسى وأن العظم يُكسر..
●●●
بعد.. حين
كانت الشمس كما تأتي تغيب
كنت أذهب للمسجد في كل صلاة
كنت مشدوداً الى الرب
في كل اتجاه
كان الزهر
في الشارع منشوراً.. وأحمر
قلت.. أحمر
قال الأعراب: إن اللون أسمر
جعلوني رغم إبصاري أعمى..
أيها السادن في البيت الكبير
شاقني صوتك والفجر.. غرير
فبكيت..